مقاربة منهجية في فهم إشكالية العنف المدرسي
من خلال فرضية الدولة الأبوية

الأستاذ بوعناني : بوعناني براهيم

لقد شكل موضوع العنف بشكل عام و العنف المدرسي بصفة خاصة في الفترة الأخيرة نقطة اهتمام و مجال تناول للعديد من الباحثين و الدارسين باختلاف تخصصاتهم واهتماماتهم مما أدى إلى تعدد الرؤى الفكرية ووجهات النظر التحليلية و اختلفت زوايا ومجالات التناول و الطرح.

فمن المقاربة التفسيرية الوصفية التي لا تخرج عن إطارها الأكاديمي النظري و التي تهدف في مضمونها للإشارة لأشكال و صور العنف المدرسي و البحث في أسباب و عوامل حدوث الظاهرة إلى الرؤية الاعلامية التبليغية التي تكون الغاية منها التذكير و الذكر لوقائع و مظاهر تفشي الظاهرة و التحذير من خطورة نتائجها.

لكن تبقى غالبية هذه التصورات لها الصيغة التقديرية غير التحليلية لأنها تعتمد منهجية بحث قائمة على أساس التوقف و ليس الوقوف على مظاهر العنف المدرسي، الكشف وليس الاكتشاف لأسباب الظاهرة، التعيين و ليس معاينة لمن يمارس العنف و من يمارس عليه.

السؤال الذي يبقى يطرح نفسه بخصوص التفكير حول موضوع العنف المدرسي بالرغم من تعقيداته المعرفية و المنهجية و تجلياته الواقعية و العملية هو أي إطار ثقافي واجتماعي يمارس ضمنه هذا السلوك و من جهة ثانية ما هو الاطار الابستيمولوجيالمفاهيمي الذي ينبغي اعتماده و توظيف أدواته أثناء الدراسة لأننا نعتقد أن العنف كظاهرة اجتماعية شاملة تعرفها جميع المجتمعات البشرية سواء البسيطة منها أو المعقدة، المتقدمة منها أو المتخلفة لا نتصور وجودها و تفاعل عناصرها إلا ضمن إطار مكاني و زماني محددين و لهما الخصوصيات الثقافية و الاجتماعية و يساهمان بشكل أو بآخر في تحديد مكونات و مظاهر هذه الظاهرة و في تعيين طبيعة آليات و أدوات ممارستها، و هي أيضا ظاهرة معقدة و مركبة تأخذ أبعاد اجتماعية و نفسية و حتى انثروبولوجيةفي بعض الحالات مما يجعل أشكال مختلفة (عنف عائلي، عنف مدرسي، عنف سياسي...) و تمارس عبر مستويات كثيرة ضمن تراكب البنى الاجتماعية للمجتمع و وفق أساليب و أدوات متعددة (جسدي، لفظي، رمزي...) و يقوم بها اطراف اجتماعية متميزة (ذكور، إناث، مثقفين...).

أحد مستويات هذا الإطار الثقافي الاجتماعي الذي ينبغي أن نضع داخله إشكالية العنف المدرسي لدراسة جزئياتها و عناصرها هو محيط المدرسة و ما يحتويه من عناصر و معطيات للتفاعل و التأثير و التأثر و هنا يصبح السؤال الأساسي الذي ينبغي طرحه هو لماذا يمارس العنف بالتحديد داخل المدرسة و ما هي الظروف التي تؤدي إلى أن يمارس هذا السلوك داخل هذا المحيط التربوي التعليمي؟ طرح المسألة

بهذه الكيفية يضع صورة المدرسة في تناقض واضح مع طبيعة أهدافها و خصوصية أبعادها الوظيفية المرتبطة بتحقيق روح التربية و نموذج السلوك المثالي لدى التلميذ.

لتفكيك و توضيح عناصر هذا التناقض و للإجابة على التساؤلات التي طرحناها سوف نبتعد قدر الامكان عن الرؤية الشمولية و الأطروحات الوصفية التي تعتمد التعميم و التكميم فهي تنظر للعنف على أنه موضوع واحد له معنى و أشكال و أسباب و نتائج واحدة مهما اختلف مكان و مصدر العنف فهي لا تميز بين العنف الذي يمارس من طرف التلميذ و ذلك الذي يمارس من طرف الأستاذ، و لا فرق بين ذلك الذي يقع داخل القسم و الذي يحدث في الساحة، و لا اختلاف بين العنف المعنوي و المادي، و هذا خطأ منهجي لان العنف بلغة ماكس فيبر هو فعل اجتماعي يحمل معنى و موجه نحو الآخر و المعنى الذي يحمله التلميذ حول نشاط العنف الذي يقوم به يختلف تماما عن ذلك الذي يعرفه الأستاذ أو الإداري مادام أن المبررات تختلف و الأهداف أيضا تختلف، نفس الشيء إذا ما تحدثنا عن شكل العنف لأن الأسلوب في الممارسة ليس واحدا باعتبار أن الفاعل لديه العديد من الاختيارات ما بين وسيلة الشتم أو الضرب أو التكسير.

في البداية هناك عنف الدولة:

يمثل نموذج الدولة الأبوية في مستوى بعده التفاعلي مع المجتمع و من خلال مستوى اشتغاله الاستراتيجي الهدفي تعبير مكثف و حضور مؤكد عن هيمنة آلة ممارسة العنف بشكله غير العلني و اللامباشر.

نمط العلاقة الأبوية الذي تؤسس له السلطة السياسية في الجزائر تحركه أساسا هدفية تكريس أسلوب الهيمنة المطلقة وفق إستراتيجية تحقيق الذات السياسية المتسلطة اولا و فرض هذه الذات على أنها الأكثر تفوقا. فتجليات هذه الممارسة للعنف يعكسها أسلوب العلاقة التفاعلية العمودية الذي ينتج بموجبها نموذج الفرد المستلب في تفكيره و سلوكه و مواقفه باعتبار أنه يحقق سيادة و تعالي إزاء الطرف الأول و غياب أو تغييب لإرادة الطرف الثاني، فالأول له سلطة التحكم و التدخل في تحديد و توجيه مواقف و خيارات الثاني تصل إلي غاية تضييق محيط دائرة حريته.

كل هذا يمكن فهمه عبر ثلاثية أساسية من الأسئلة المنهجية ألا و هي : متى؟، أين؟، ولماذا؟.

نفس الأسئلة يمكن اعتمادها من أجل وضع مقاربة منهجية لفهم إشكالية العنف الذي يقع ضمن دائرة المحيط المدرسي و هذا ما سوف نحاول القيام به من خلال هذا المقال.

في تعريف العنف المدرسي:

معلم أن الانسان هو تركيبة من الطاقات المتعددة و المختلفة فكرية، جسدية وروحية، يتم تفعيلها بطريقة أو بأخرى حسب الوضعيات المختلفة و بنسب و أحجام

متباينة و حسب وضعيات مغايرة لتحقيق أهداف و غايات مباشرة أو غير مباشرة، و لهذا سوف نكون أكثر عمليين في تحديدنا لمفهوم العنف و نحاول أن نجمع كافة العناصر التي يمكن أن تجعل من هذا المفهوم أداة توظيف لفهم و تحليل جميع أشكال العنف الممارسة في المجتمعات و نبتعد عن تلك التعريفات التي ينحصر تدخلها على جانب النتائج و الآثار المترتبة عن هذا السلوك فتبني كل تصورها على أحكام قيمية تضع بصفة نهائية و منذ البداية هذا الصنف من الظواهر الاجتماعية ضمن خانة الحالة الباثولوجية أو المرضية التي لم يكن ينبغي أن توجد داخل المجتمع، و هذا ما يشكل نموذج من العوائق الابستيمولوجية التي تضع موضوع التفكير ضمن إطار المقيد و المغلق مما يمنع كل عملية تفكير حر متفتح.

إجرائيا العنف عبارة عن تجسيد على الواقع لشحنة من الطاقة البشرية، يتم تفعيلها بأدوات و أساليب معينة على موضوع مادي (تكسير ملكية الغير مثلا) أو إنساني (الاعتداء بالضرب على الأخر) هذه الطاقة هي التي تأخذ صورة السلوك الفردي أو الجماعي الناتج عن مصدر تفعيل تلك الشحنة بطريقة عضلية أو فكرية تكون موجهة نحو موضوع محدد، إنها علاقة للتأثير و التأثر بين الطرفين أ و ب مصدرها تلك الطاقة، يترتب عنها تغيير أو تحول مادي أو معنوي في الصورة أو البنية التركيبية الطبيعية للطرف ب إنها أيضا علاقة للقوة المادية أو المعنوية الرمزية غير المتساوية و غير المتوازنة ما بين هذين الطرفين، ينجر عنها آثار غير مرغوب فيها لدى الطرف الثاني علما ان الطرف أ له صفة الجسم البشري أما الطرف ب فيمكن أن يكون له إما صفة الموضوع المادي أو البشري، إذن كل سلوك أو ممارسة تتوفر فيها خصائص القوة و القلق و الغضب و تستعمل فيها أدوات أساليب القمع و الاندفاع و الشتم و التكسير و الايذاء و عدم الاحترام و التقليل من قيمة الآخر، هو في نظر العديد من الباحثين عنف.

العنف المدرسي حالة أو صيغة أو صفة من الممارسة للطاقة التي تمارس داخل إطار مؤسسة المدرسة من طرف أو على أحد عناصرها البشرية (أستاذ، تلميذ، إداري...) أو المادية (الطاولة، الكرسي، النافذة ...) سلوك القوة هذا يتعارض في نتائجه و كيفية ممارسته مع قواعد التنظيم العام للمدرسة و مع مبادئ و قيم النظام الأخلاقي للمجتمع العام. لكن هذا ما يسمح لما الحسم بصفة نهائية على أنه سلوك سلبي لأنه في نهاية المطاف يتبناه أو يلجأ إليه الطرف أ مقابل اختيار البرهنة و الاقناع و الحوار تعبيرا عن عدم الرضا القبول بوضعية ما أو فكر أو سلوك ما، إنه اختيار يريد أن يمرر عن طريقه فكرة معاكسة او مبدأ مغاير أو أم يغير بموجبه وضعية ما.

العنف مبدئيا سلوك مرفوض لأنه يحدث آثار غير مرغوب فيها لدى الأخر لكن من الناحية العملية هو كيفية للتعبير عن الذات و لتحقيق لها مكانة ووجود داخل الكل الاجتماعي مادام أن الهدف منه هو إلغاء أو رفض لهذا الأخر المباشر او غير

المباشر، إنه أيضا شكل من العصيان على نظام القيم و السلوكاتالتي يفرضها المجتمع على الجميع التي يمنع بموجبها أي تجديد أو تغيير و يؤسس من خلال لفكرة الوحدة و الأحادية و لفكرة الالزام لا الحوار و لمبدأ الانغلاق لا التفتح.

الخلاصة هو ان الشخص الذي يمارس العنف من الناحية الفزيائية و بغض النظر عن التصور الأخلاقي هو طاقة متحركة و متفاعلة بتعبير آخر هو طرف فاعل (Acteur) أي إيجابي و ليس سلبي من مفهوم النشاط أو الحركة و الديناميكية التي تميز هذا الموقف أو السلوك و من هنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي : ألا يمكن أن تكون صفة السلب المرفوض و غير الأخلاقي التي نطلقها في الكثير من الحالات على موضوع العنف مرجعها فقط إلى خصوصية الأداة و الغاية التي يحملها هذا السلوك أي إلى ما بعد حدوث الممارسة و ليس إلى طبيعة المنبع و حقيقة المصدر و ماهيته بتعبير آخر السؤال الذي ينبغي التأكيد على طرحه أثناء تناول موضوع العنف المدرسي هو ليس من يمارس العنف؟ و ضد من يمارس، على من؟ و إنما لماذا يمارس العنف بالتحديد داخل المدرسة؟ لأن فعل العنف في نهاية المطاف قائم و موجود بكل حيثياته و تجلياته عبر الكثير من المؤسسات التعليمية فهو إذا معلوم و قائم لكن المجهول الذي ينبغي البحث فيه و الكشف عنه هو لماذا سلوك العنف يأخذ معنى سلبي؟ و هنا ينبغي أن نعلم مسبقا أن المقصود بالسؤال لماذا ليس السبب أو الدافع الذي أدى إلى ممارسة العنف و إنما المنطق الذي تبناه صاحب العنف أنتجه على مستوى وعيه و إدراكه الذاتي وفق استراتيجية هو قد اختارها مسبقا، يريد بموجبها ان يصل إلى تحقيق أهداف محددة سلفان إنه سلوك واعي يتم تعقل أدواته و نتائجه منذ البداية، إنه صورة من رد الفعل على واقع أو موجود مرفوض على هذا الأساس تحليل مفهوم العنف المدرسي يكون وفق أدوات و مفاهيم و منهجية النظرية الفردانية أي دراسة هذا الموضوع على مستوى الفرد كفرد من حيث اعتقاداته و تصوراته و علاقاته و تأثره بعناصر محيطه الذي ينتمي إليه مباشرة و ليس على مستوى علاقة الفرد و تأثره بالمحيط الاجتماعي و السياسي و الثقافي العام.

سؤال لماذا يفترض علينا أن نتبع منهجية التفسير السوسيولوجي التي جاء بها ماكس فيبر و بالتالي ضرورة تفكيك موضوع العنف المدرسي إلى عدد من الأجزاء وفق ثلاث استفهامات أساسية. متى؟ أين؟ من أجل أي هدف؟ و الوقوف بالتحليل على عناصر كل استفهام و في هذه الحالة لا يهم سؤال من يمارس العنف؟ و لا كيف يمارس؟ و لا ضد من يمارس؟ و إمنا الذي يهم هو أي استراتيجية تتحكم في هذه الممارسة؟ و أي منطق يحكم سيرانها و نتائجها؟

سؤال: متى يمارس العنف المدرسي؟

هو ليس استفهام في الزمن أي في لحظة و تاريخ وقوع العنف أو في فترة من فترات العمر العددي للفاعل و إنما الزمن هنا المقصود به حجم التراكم الكمي للأحداث الواقع التي تميز وضعية ما يوجد فيها هذا الشخص، إنه الزمن الاجتماعي نقطة توفر

شروط مكانية تؤدي إلى تحريك أو تفعيل تلك الطاقة التي تحدثنا عنها في صورة سلوك للعنف أي ثنائية علاقة الواقعة و رد الفعل بتعبير آخر إنها لحظة الاقبال على القيام بالعنف مرتبطة بخصوصية الشروط التي أنتجت هذا العنف أي مرحلة عدم تمكن التلميذ مثلا خلال حصة من التدريس من توظيف قدراته الفكرية و العقلية التي يمتلكها و هذا شكل من أشكال الطاقة التي لم يتم تفعيلها عبر قناة الابداع و المشاركة العلمية داخل القسم مثل طرح الأسئلة على الأستاذ أو تقديم تصور خاص حول موضوع ما أو إعطاء وجهة نظر نقدية. وضعية العنف هذه ساهمت في إنتاجها شروط واقع محدد هو المدرسة و بالتحديد القسم، و أدت إلى بلورتها مجموعة من المعطيات المباشرة من بينها طبيعة المناخ الاجتماعي الذي يعرفه القسم و الكيفية التي يمارس بها الفعل التربوي و الفعل التعليمي و أسلوب تنظيم العلاقة ما بين الأطراف الاجتماعية التي تنتمي إلى هذا المحيط و عليه كل سلوك للعنف يمارس عندما يصبح صاحبه يحس أنه مهدد في وجوده و شخصه بسبب تفاعل عناصر اجتماعية وثقافية.

سؤال : أين يمارس العنف؟

إنه استفهام حول المكان الذي يمارس فيه العنف المدرسي، لكن ينبغي أن نعلم مسبقا ان مفهوم المكان في هذه الحالة يحمل معنيين، الول مادي يتمثل في الفضاء الذي له حدود جغرافية مكانية معلومة مثل القسم، الساحة... المعنى الثاني اجتماعي مرتبط بعنصرين أساسيين أولهما هوية و مكانة التركيبة البشرية لهذا المكان مثلا: داخل المدرسة هناك تلميذ و أستاذ، داخل العائلة هناك أب و ابناء...و ثانيها بالخصوصيات الثقافية والشروط القانونية التنظيمية لهذا المكان التي تجعل من مكان المدرسة يختلف عن مكان العائلة، فترسم له صورة محددة و مميزة و تعطي لمكونات تركيبته البشرية كيفية خاصة في التنظيم و طريقة معينة في التفاعل و انتاج السلوكات و الممارسات، الذي يهمنا أكثر هو المعنى الثاني أي المكان الاجتماعي و تحديدا مجموع العلاقات و التفاعلات و انماط السلوكات و الممارسات التي ينتجها الأطراف داخل هذا المكان و التي تؤسس لما يسمى بعناصر الكتلة الاجتماعية و الثقافية لأنها محكومة أو مضبوطة بمنظومة من الأحكام القانونية و التنظيمية لمؤسسة المدرسة، و على هذا الأساس، التعيين و المعاينة لمكونات المكان المادي من شروط اجتماعية و ثقافية هي التي ستسمح لنا بأن نتعرف على ماهية وطبيعة العنف داخل المكان الواحد، و أن نضع له صورة و تصنيفات مبينة. ليست الأشكال و الأدوات المستعملة أثناء هذه الممارسة هي التي تعطي التصنيف لأشكال العنف لأنها تقريبا واحدة، سواء تعلق الأمر بالعف المدرسي أو شكل أخر من العنف.

الشيء الذي ينتج هذا التميز بين هذه الأشكال و يجهلنا نضع من الناحية العلمية الأكاديمية هذا القسم أو التصنيف هو اولا صفة و هوية من يمارس العنف داخل هذا المكان، و ثانيا الأهداف التي يريد أن يحققها أو يصل إليها من جراء ممارسته للعنف.

إنه سؤال لا يبحث في الخصائص الجغرافية للمكان بقد ما يدرس الشروط الاجتماعية التي ينتمي إليها هذا الشخص.

سؤال : ما الهدف من ممارسة العنف المدرسي؟

إمبريقيا سلوك العنف كممارسة اجتماعية يمر عبر ثلاث محطات زمنية: ما قبل - أثناء - بعد، أي أن الموضوع يتطلب منا الوقوف و بالتحديد على جميع عناصر هذه المحطات حتى نفهم اولا الخلفيات التي تؤدي إلى القيام بهذا السلوك، و ثانيا صورة و طبيعة العلاقة التفاعلية بين من يمارس و من يمارس عليه العنف، و ثالثا ماهية الافرازات و الوضعيات الجديدة الاجتماعية التي تنجر عن هذا التفاعل.

فهم و تحليل معطيات هته الاستفهامات هو الذي يسمح لنا بإعطاء معنى سوسيولوجي للهدف كتصور و كموقف يختاره الشخص و يبدأ في تفعيله من خلال الدخول في علاقة عنف مع الآخر تعبيرا عن رفضه لوضعية قائمة غير مرغوب فيها و تمارس عليه من الاكراه المعنوي و المادي. إنها تعبير عن وضعية للصراع ما بين الفاعل الاجتماعي و قواعد و آليات الإطار التنظيمي للمؤسسة المدرسية.

سؤال الهدف الخاص بموضوع العنف المدرسي لا يرتبط بماهية النتائج و الآثار المترتبة أو التي يريد الفاعل الوصول إليها، و إنما متعلقة بأهمية الخلاصات الاجتماعية التي تكون حصيلة فعل اجتماعي ممارس عبر علاقة تأثر منبعها الأول طاقة الفرد التي تتحول أثناء توفر عنصر الزمان و المكان الاجتماعيين إلى سلوك إجرائي يتم الحصول من خلاله على وضعية و موقف داخل نسق و بنية النظام العام للمؤسسة.

هذه كبة من الزمن و المكان و الهدف الاجتماعيين التي تشكل الأبعاد النظرية للسؤال الأساسي لماذا يمارس العنف داخل المدرسة بالذات، و هي بمثابة أليات للتحديد يمكن العودة إليها للإجابة على فرضية البعد الثقافي لموضوع العنف.

إن كل بعد نظري يوفر للباحث مجموع معطيات البحث العلمي بل إنها تشكل مادة التحليل يمكن على أساسها فهم أي إشكالية سواء تلك المتعلقة بالأسباب أو المسببات أو بالمظاهر و الأشكال او بالنتائج و الآثار.

قائمة المراجع :

- Marcel Mauss. Essais de sociologie. Ed de Minuit. 1969
- Philipe Bracet. Science et sociologie. Ed Publisud. 1994
- Raymon Boudon-François Bourricaud. Dictionnaire critique de la sosiologie. Ed Puf. 1982
- Maurice Angers. Initiation pratique à la méthodologie des sciences humaines. Ed Casbah. 1997